الفَصلُ الثانيّ

النَقْدُ الأدبِيُّ فِي عَصْرِ صَدرِ الإسْلامْ

من القَضايا النَقديّةِ التي طُرِحتْ في هَذا العصرِ؟

١- قَضيّةُ مفهومِ الشِّعرِ ووظيفتُهُ.
٢- قَضيّةُ الشّعروالأخْلاقِ.
٣- قَضيّةُ الإلتزامِ فِي الشِّعرِ.
٤- قَضيّةُ الصِّدقِ الفَنِّيِّ والصِّدقِ الوَاقعّي.

وهَذهِ القَضايا وُجِدتْ بذُورُها الأولَى في عَصرِ صَدرِ الاسْلامِ، وموقفُ الاسلامِ والقرانُ الكريمُ، والرّسولُ(صلَّ ـاللهُ عَليهِ وسلّمَ) والخلفاءُ الراشدونَ مِن بَعدهِ ، والصَّحابةُ(رَضِيَ اللهُ عَنهُم)، كانت لهم ملاحظاتٌهم النقدية وأراءهم ، ومِمّا يُلاحظُ في نقدِ صدرِ الاسلامِ ظُهورُ تَعليلُ الإحكامِ النقديّة ، بَعدَأنْ كانَتْ ملاحظاتٍ وأراء لا تَميلُ الى التّعليلِ.

ويبرزالخليفةَ عُمرَ بنَ الخَطّابِ(رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)مثالًا للناقدِالأدبيّ هذا العَصرِ ، إذ نراه يُفضّلُ زُهيرَ بنَ أبِي سُلمَى على شُعراءِ العَربِ ، معللا أسبابَ هذا التّفضيلِ الى أن زهيرا في نظره النّاقدِ سَهلُ العبارةِ، لا تَعقيدَ فِي تراكيبِه ، لا غَرابةَ فِي ألفاظِهِ، ثُمَ هُو في مَعَانيهِ بعيدٌ عَنِ المبالغةِ فِي مدائِحهِ ، فَكانَ لا يَمدَحُ الرّجُلَ إلاّ بمَا فيهِ.

فالنقد الادبيّ كَما يرى إبنُ رَشيقٍ القَيرَوانِيّ (ت ٤٥٦ هـ) دخل على يد الخليفة عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)طورا جديدا هو طور التعليل.

وكذلك الحال بالنسبة للامام علي (عليه السلام)فهو مثال للناقد الأدبي في عصر صدر الاسلام ، ومقولته الآتية تنم عن ذوق أدبي ، وتعبرعن رأي خبر الشعر وتدبره ، فصدرت أحكامه معللة الأسباب ، فقد اثر عنه مقولة مفادها ان أحسن الشعراء من لم يقل لا راغب ولا راهب، يقصد بذلك أمرأ القيس! لأنه وجد امرأ القيس أحسنَ الشعراءِ نادرةً ، واسبقهم بادرة، فالحكم النقدي هنا (تفضيل امرئ القيس) حكم معلل ، لأنه في نظر الإمام الناقد كان أحسن الشعراء ، لتقاطه لجواهر المعانى ، واسبقهم ابتكارا لطرائق الشعر.

ففئة النقاد في هذا العصر كانت تتمثل برأس الدولة الاسلامية الرسول الله (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)ومن بعده الخلفاء الراشدون والصحابة الكرام رضي الله عنهم اجمعين.

١- مفهوم الشعر وبيان وظيفته أو أهميته:

إن مفهوم الشعر وبيان أهميته قضية كبيرة في النقد الادبي قديما وحديثا ، وأصول هذه القضية برزت في عصر صدر الاسلام ، فقد كان الرسول(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ) ، خير من وجه النقد الادبي وجهة جديدة ، اهتدت بمعاني الاسلام ، واقتدت بتعاليمه ، فقد أُثرَ عنه كلمات تُلمُ بمفهوم الشعر ، وبيان وظيفته التي ارتضاها له ، ومنها قولُه(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ): ((إنما الشعرُ كلامٌ مؤلفٌ ، فما وافقَ الحقَ فهوَ مُحسَنٌ ، وما لَمْ يوافقِ الحقَ فلا خير فيه)).

فقد بين (صلى الله عليه وسلم)حقيقة الشعر، وانه لا يعدو كونه كلام ، إذعرفه(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)بأنه كلامٌ وحدده بالتأليف ، الذي يعني فيما يعني انفراده عن الكلام العادي بالنظم والصنعة ، عكس الكلام المطلق الذي لا فن فيه ، ولا تأليف ولا نظم ، ونجد هذا التعريف ذاته عند النقاد فيما بعد إلا أنهم أضافوا إليه عنصرين : هماالوزن والقافية ، فالشعر عندهم له وزن وقافية ، إلا ان الرسول (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)أوجزتعريفه على انه كلام مؤلف ، لان العرب آنذاك ما كانوا بحاجة الى تعريف ركني الشعر (الوزن والقافية) ، كما ان هذين المصطلحين ولدا في مرحلة لاحقة عند الخليل بن احمد الفراهيدي عندما وضع علم العروض.

وورد هناك تعريف آخر للرسول (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)للشعر ،إذ أُثر عنه قوله: ((الشعر كلام من كلام العرب، جزل تتكلم به في بواديها ، وتستل به الضغائن من بينها))، فقد أضاف الرسول (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)وصف الجزالة، التي تعني المتانة والرصانة، وكل ما خلاف الركة في شرح الكلام ، ثم بين (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)غاية الشعر في القسم الثاني من الحديث ((وتكلم به في بواديها ...)) ، وتشمل هذه الوظيفة عموم الشعر العربي الذي قيل في عصر الاسلام أو ما قبله.

فالشعر يجب ان يكون وسيلة خير ، يستل بها الشاعر الضغائن والأحقاد من صدور أبناء المجتمع ، ويرقق النفوس ، فغاية الشعر إذن هي التعبير عن واقع الحياة العربية ، وإصلاح ذات البين بين أبناء الجزيرة العربية، هذا تعريف الشعر عند الرسول (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ) ، وبيان مهمة الشاعر.

وضمن هذه الرواية نستطيع ان ندرج أراء الصحابة ومنهم الخليفة عمر بن الخطاب(رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)إذ كتب الى واليه قائلا : ((مر من قبلك بتعلم الشعر، فانه يدل على مكارم الأخلاق وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب))، ففي هذا القول بيان لوظيفة الشعر وأهميته.

٢- قضية الشعر والأخلاق:

وهي من القضايا الكبيرة في النقد الادبي قديما وحديثا،ونلمس جذور هذه القضية في نقد صدر الاسلام ، من ذلك ان الرسول(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)، وكذلك الخلفاء والصحابة كانوا يبدون إعجابا كبيرا بالشعرالخلقي أو الأخلاقي الذي يصور الفضائل والمروءآت والقيم الاجتماعية والأخلاقية ، فحينما انشد الرسول(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ) لطرفة البيت الذي يقول فيه :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالإخبار من لم تزود

قال:((هذا من كلام النبوة))،وعند ما سمع قول لبيد :

إلا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قال: عن الشطر الاول من البيت ((هذه أصدق كلمة قالها شاعر)).

من هذا يفهم ان الناقد الإسلامي قد ربط بين الشعر والأخلاق ، إي يريد للشعر ان يعبر عن مضامين أخلاقية ، منسجما ذلك مع موقف الرسول(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)من امرئ القيس فقد أُثِر عنه قوله فيه : ((انه حامل لواء الشعر الى النار)) ، يفهم من هذا الحديث موقف نقدي يخص جانبا من شعر امرئ القيس، هو الصورالوصفية في غزله الفاحش المتهتك ، التي تتنافى مع مبادئ الاسلام الداعي الى العفة والخلق الكريم ، وليس المراد شعر امرئ القيس جميعه ، او شخصية امرئ القيس على الحقيقة ، بل في هذا الحديث ـ كذلك ـ تعريض للشعراء المسلمين لكي يتجنبوا الموضوعات التي تحدث فيها امروٴ القيس ، وتوجيه لهم أيضا لكي يتحدثوا عن موضوعات الخير ، والأخلاق الكريمة في إشعارهم ، ويتصل بهذا الجانب موقف نقاد عصر صدر الاسلام ، من غرض الهجاء،فقد قال الرسول (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ): ((من قال في الاسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر)) ، ويتوافق مع هذا الحديث موقفُ الخليفة عمر(رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)من غرض الهجاء أيضا فقد سجن الحطيئةالشاعر لأنه هجا الزبرقان بن بدر في قوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

وقد استعطف الحطيئة الخليفة متشفعا بصبيته الصغار ، فأخرجه من السجن واشترى منه إعراض المسلمين بمبلغ من المال ، ليكف عن هجاء الناس ومما قاله الحطيئة في استعطاف الخليفة قوله:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحوا صل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فامنن عليك سلام الله يا عمر

فهذه مظاهر وأدلة ربط الشعر بالأخلاق ، وهي قضية كبيرة من القضايا النقدية قديما وحديثا.

٣ـ قضية الالتزام في الشعر :

المقصود بالالتزام في الشعر ان يتبنى شاعر أو مجموعة من الشعراء عقيدة معينة يؤمنون بها ويدافعون عنها وينشرون أفكارها ومبادئهم من خلال إشعارهم ،وهذه القضية هي من اكبر القضايا النقدية في النقد العربي القديم وقد وجدنا بذورها الأولى في عصر صدر الاسلام ، ومن مظاهر هذه القضية ما نجده في الآية الكريمة في قوله تعالى:((والشُّعراءُ يتّبِعُهمُ الغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيْمُونَ * وَأَنهُم يَقُولونَ مَا لَا يَفْعَلونَ * إلّا الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْصَالِحاتِ وَإنتصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيعْلَمُ الّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبونَ))، فالآيات الكريمة قسمت الشعراء على قسمين:

الفئة الأولى : فئة الكافرين والمنافقين .

الفئة الثانية: فئة المؤمنين الذين التزموا مبادئ الاسلام الحنيف ، وظهر هذا في سلوكهم وتفكيرهم ، وطريق تعبيرهم.

فأصحاب الفئة الأولى دعوا الشعراء الى ربط اقوالهم الشعرية بسلوكهم الإسلامي الملتزم ،وهذا أول توجيه في تاريخ النقد الادبي عند العرب يطالب الشاعر بسلوك ملتزم بمبادئ الخير والحق ، ومتصف بالخلق القويم،كذلك نلمح من خلال دراسة الواقع الشعري في عصر صدر الاسلام تشجيع الرسول(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)للشعر والشعراء،وتوجيههم نحو الالتزام الديني والخلقي ، واتخاذ الشعر وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية وجهاد الكفار ، وقد وردت أقوال كثيرة للرسول(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)فيها

تشجيع للشعراء الذين سُموا بشعراء الدعوة الإسلامية ، وهم حسان بن ثابت ، عبد الله ابن رواح ، كعب ابن مالك(رضي الله عنهم)، ومن هذه الأقوال قوله (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ): ((هؤلاء النفر اشد على قريش من نضح النبل))، وقوله في حسان بن ثابت:((اهجهم وجبريل معك))، ويتضح من هذه الأقوال بعد نظر الرسول(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)،وإدراكه لأهمية الشعر، وتوجيهه الى خدمة الدعوة الإسلامية، ونشر الخير، فنراه هنا اتخذ من الشعر سلاحا في معركته مع الكفار ، والشعراء التزموا قضية الدعوة الإسلامية ، وجاهدوا في سبيلها.

٤- قضية الصدق الفني والصدق الواقعي:

الصدق الواقعي:صدق الشاعر في تعبيره عن مشاعره وتصوير واقع حاله أو حال المعنى الذي يصوره.
أما الصدق الفني: فهو إجادة الشاعر أو الأديب في تصوير معنى من المعاني سواء وجد هذا المعنى في الواقع أم لم يوجد ، كأن ينجح الشاعر في مدح شخص بوصفه بكل قيم الخير التي يفتقدها هذا الممدوح في الواقع ولكن قدرة الشاعر الفنية تجعله متخيلا لوجود هذه الصورة المثلى للممدوح ، وتظهر هذه القضية في نقد صدر الاسلام من خلال ارتضاء النوع الأول من الشعر (الصدق الواقعي) ورفض المبالغة المفرطة في الشعر والتي تتعلق بـ (الصدق الفني)، ونرى ذلك في موقف الرسول (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ)من النابغة الجعدي الذي بالغ كثيرا في فخره عندما قال:

علونا السماء عفة وتكرما وانَا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

فقال له الرسول (صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ): ((الى أين أبا ليلى؟))، فقال: الى الجنة يا رسول الله ، فقال(صلَّى اللهُ عَليهِ وسلّمَ): ((الى الجنة ان شاء الله))،وفي إعجاب الخليفة عمر (رضي الله عنه) بشعر زهير بن ابي سلمى، وتفضيله على جميع الشعراء سواه، لأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، إي انه كان صادقا في مديحه لهرم بن سنان فهو في تمجيده لشخصيته هرم لم يكن يبتغي مكسبا ، وإنما كان يعبر عن إعجابه بهذه الشخصية ودورها ، فكانت تمتلك الصدق الواقعي.